

على هامش النقد

الأدب «المهموس»

والأدب الصادق

للأستاذ سيد قطب



قلت أكثر دلالة من الشرح العام — أستطيع أن أسمى هذا اللون باللون «الحسني» حسب تعبير أولاد البلد من القاهريين الذي نحس فيه «بالحسنية» أو بالهمس والوداعة الأليفة حسب تعبيره هو !

وهذا الأدب الحسني قد يكون فيه الصادق السليم ، وقد يكون فيه الكاذب المريب . ولكنه على كل حال لون واحد من ألوان الأدب ، يعبر عن مزاج واحد من الأمزجة ، في حالة شعورية واحدة من حالات الشعور

فاذا نحن جعلنا هننا أن نهمس فقط ، وأن نكون وديعين أليفين فقط ، وأن نكون الحنية هي طابعتنا فقط ؛ فأين نذهب بالأعماط التي لا تعد من حالات الشعور وحالات النفوس وحالات الأمزجة ، في هذه الحياة الحافلة بشتى الأعماط ؟

يسمى الأستاذ شعر المتنبي شعراً خطايا ، ويعني أن المتنبي لا يهمس ولا ياتي إلينا بتعبيره في دعة وفي حنية أو في همس كما يقول مثلاً ميخائيل نعيمة

أخى إن عاد بعد الحرب جندي لأوطانه
وألقى جسمه المهوك في أحضان خلانه
... إلى الآخر

وإن الأستاذ مندور ليقف معجباً أمام صورة هذا الجندي المهوك الذي يلقى بجسمه في أحضان خلانه ، وهي صورة وديعة منهوكة قد تكون جميلة في مكانها ؛ ولكن أى خطأ ينتظرنا حين نطالب المتنبي العارم الطبع ، الصائل الرجولة ، بأن يتحدثنا في وداعة كوداعة ميخائيل نعيمة ؟

أنا لا أحاول (مؤقتاً) الفاضلة بين الطبيعة بين ، ولكنى أحاول فقط أن أقول : إن الصدق هو الذي يجب أن ننظر إليه حين نقف أمام عمل الشاعر أو الفنان بوجه عام . وإن المتنبي لصديق أجل الصدق ، وهو يجلجل ويصلصل في شعوره وفي أدانه ، لأنه هو هكذا من الداخل . وتلك صورة لنفسه ولمزاجه ، وإنها لنفس صادقة ، وإنه لمزاج أصيل

يجب أن نوسع آفاقنا . ولا سيما حين نقف موقف النقد — فلا نحكم مزاجنا الخاص ، الذي قد لا يكون أصدق الأمزجة ، بل الذي قد يكون ثمرة «عقدة نفسية» أو حادثة عارضة من حوادث حياتنا الشخصية

حكاية أن «الأدب تعبير عن الحياة» حكاية معروفة من معاد القول الحديث عنها . وإن كان تفسيرها وتطبيقها لا يزالان موضع اختلاف عند استعراض النماذج . والنموذج في الفن أبلغ دائماً في بيان المذهب من النظريات العامة .

وقد تحدث الأستاذ «محمد مندور» في مقالات ثلاث بالثقافة عن «الشعر المهموس» ثم تحدث في العدد الماضي عن «النثر المهموس» وأعاد قصة «الشعر المهموس»

وفي جميع هذه الكلمات كان مندوماً لأن يثبت أن أدباء المهجر هم «شعراء اللغة العربية» وأن «بين شعرهم وشعر الكثير من شعراء مصر قرؤنا» وكذلك نثرهم الشعري

وليس يسوءني ولا يسوء أدباء مصر أن يكون الأمر كذلك حقيقة ، فالتعصب هنا لا محل له ؛ ولكن الذي يهمني ويهم أدباء مصر ويهم الأدب في ذاته ، أن «النماذج» التي جاء بها والدعوة التي يدعو بها إلى هذه النماذج هي توجيه مؤثر في فهم الأدب وفهم الحياة !

وأنا أنهم مثلاً أن يحب الأستاذ مندور أو سواء لونا خاصاً من ألوان الأدب ، فذلك مسألة مزاج ؛ ولكن الذي لا أفهمه أن يصبح هذا اللون الواحد دون سواء هو الأدب الصحيح الراقى المتقدم ، وأن يكون ما عداه من الألوان مرة «سخيفاً» كما يقول عن شاعر كبير قديم ... فذلك ضيق في الإحساس ، يجوز أن يقنع به قارئ يتذوق ويلذ له لون واحد من الغذاء الروحي ؛ ولكنه لا يصلح لمن يتصدى للتقيد والتوجيه

وما اللون المفضل الذي يدعو إليه الأستاذ ؟
من جميع النماذج التي اختارها حتى الآن — والنموذج كما

والفرق بعيد والمسافة طويلة بين هذين النموذجين وبين سواهما . ولكن الذى يجمع بينهما هو مجرد « الحنية » ومجرد الأسى المتهوك . وبهمنى أن أبرز هذا المعنى إبرازاً خاصاً ؛ فهو دليل عندى على هذه « الحالة الخاصة » التى أكاد أعزُر إليها ولعمري بهذا اللون ، فهذه الحالة هى التى تجعله يستجيد كل ما ينطوى على هذه العناصر جيدة ورديدة على السواء . وهذا ما يدعونى للشك العميق فى أن « مزاج » الأستاذ الخاص هو الذى على عليه آراءه لا ذوقه الفنى

إن المسألة ليست مسألة ضيق فى أفق الذوق الفنى فقط ، ولكنها « حالة مزاجية » خاصة تتحكم فى هذا الأفق الضيق بطبيعته . وأخشى أن تكون حادثة ما أو عدة حوادث كامنة فى ماضى الأستاذ مندور تتحكم فى نفسه دون شعور . وهذا ما يدعوا إلى الحذر الشديد فى تقبل هذه الآراء !

وقصة « النثر المهموس » ؟ إنها قصة « الشعر المهموس » . وأريد أن أقول للأستاذ مندور إن الفقرات الأخيرة من قطعة « بأسمى » لأمين مشرق هى فقرات طيبة فى إحساسها وفى أدائها ، ولكن الفقرات الأولى « تقليدية » من أدب « القوالب » المحفوظة . وكناقد كان يستطيع أن يفرق بين هذا وذاك ؛ ولكنه كصاحب مزاج خاص لم يستطع التفرقة . ففيها جميعاً تشيع روح « الأسى المتهوك » وهذا يكفى !

وإذ انتهيت إلى هذا الحد أحب أن أعرض على الأستاذ مندور وعلى القراء ألوأنا من الشعور البسيط الذى لا تفقده بساطته وألفته قوته وسلامته وصحته . وهو من عمل أدباء مصريين من أولئك المتخلفين قرونًا فى نظره

وهذا النموذج الأول لأديب شاب من رثاء لأمه : (وقد اخترتها لمناسبة قطعة أمين مشرق) :

« من نحن اليوم يا أماء ؟ بل ما نحن اليوم عند الناس وعند أنفسنا ؟ ما عنواننا الذى نحمله فى الحياة ونعترف به ؟

« إننا لم نعد بعد أسرة ، ولم يعد الناس حين يتحدثون عنا يقولون : هذه أسرة فلان . بل أصبحوا يقولون : هذا فلان . وهذا أخوه . وهاتان أختاه !

وإنه ليستلفت نظرى أن جميع النماذج التى استعرضها الأستاذ مندور هى من اللون الذى يشيع فيه الأسى المتهالك المتهوك . فهل أفهم أن هذه عناصر محببة إليه وحدها ، وأن الشاعر لا يكون شاعراً حتى تشيع هذه العناصر فى شعره ؟ أعرض هنا تعبيراً أقل منه ، وله دلالة خاصة على هذا المزاج . فى قصيدة « لنسب عريضة » ساق الحديث هكذا : يا نفس مالك والأنين ؟ تتألمين وتولين ؟ عذبت قلبى بالحنين وكتمته . ما تقصدين ؟

« وهاتين منذ المقطوعة الأولى فى جو الشعر « فالنفس تئن » ! إذن كانت النغمة التى استرعت سمعه وجعلته يحس بأنه دخل فى جو الشعر هى أن « النفس تئن » . ولهذا دلالاته ، وهى الدلالة التى تنطق بها جميع مختاراته حتى الآن . وهو « مزاج » خاص له أن يتذوق ما يحبه من الألوان ، ولكن ليس له أن يتولى مهمة النقد والتوجيه كما قدمت

وأريد أن أسأل : ألا ندخل فى جو الشعر إلا إذا سمعنا هذا الأنين ؟ و « الحمس » بالسرور والفرح والانطلاق ؟ ألا يكون شعراً على هذا الأساس ؟

إن الأستاذ مندور لم يقل هذا بالضبط ، ولكن النماذج التى جاء بها جميعاً تكاد تنطق بذلك إذن توجيه مؤذ ، يكاد الدافع إليه يكون دافعاً « كمرضياً » وهو ما يدعوا إلى الحذر الشديد !

ولا أحب أن أفق من الشعر المهموس والنثر المهموس موقف العداء المطلق كما وقف الأستاذ مندور من جميع ألوان الشعر الأخرى . وكذلك لا أريد (مؤقتاً) أن أفاضل بين هذا اللون وبين الألوان الأخرى .

ولكن هذا لا يمنعنى أن أقول إنه كان موقفاً فى اختيار بعض النماذج ، وغير موفق فى اختيار بعضها . قصيدة « يا أخى » لميخائيل نعيمة وقصيدة « ترنيمة سرير » لنسب عريضة بعدان نموذجاً طيباً لهذا اللون الذى يحبه . وأقول نموذجاً طيباً لهذا اللون بذلك القيد . ولكن ما عداها من مختاراته كان نماذج رديدة للشعر عامة ولهذا اللون من الشعر كذلك ، لا فى الأداء وحده ، ولكن فى حقيقة الشعور

لمن أصعد درج الحياة بعدك يا أماء ؟ ومن الذى يفرح بى
ويفرح لى وأنا أصعد الدرج ، ويعتلى زهوًا وإعجابًا وأنا فى طريق
إلى القمة ؟

قد يفرح لى الكثيرون . وقد يحبنى الكثيرون . ولكن
فرحك أنت فريد ، لأنه فرح الزارع الماهر يرى ثمرة غرسه
وجهدہ ... وحبك أنت عجيب ، لأنه حب مزدوج : حبك لى ،
وحب نفسك فى نفسى ... !
أماء ...

عندى لك أبناء كثيرة . كثيرة جداً ومتراصة . توأبكت
جميعها فى خاطرى على قصر المهد بغيتك . وإنه ليخيّل إلى
فى لحظات ذاهلة : أننى أترقب عودتك لأسمعك هذه الأنباء ،
وأحدثك بما جد فى غيتك من أحداث ؛ وأنت ستسرين ببعضها
وتسعين ببعضها ... وهى مدخرة لك فى نفسى يا أماء . ولن تدب
فيها إلا حين أقصها على سمك ... ولكن هيات فسيديركها
الفناء ، وستغدو إلى الدم المطلق ، لأنك لن تنصتى إليها مرة
أخرى ...

أماء . أماء . أماء ...

وموعدا العدد التالى لتقديم نماذج أخرى من الشعر المصرى
« المتخلف قرونا »

سير قطب

« اليوم فقط مات أبى ؛ واليوم فقط أصبحنا شتيك منشورا .
وإنى لأضم اليوم إلى صدرى ابنك وابنتيك . أضمهم بشدة
لأستوثق من الوحدة ، وأشعرهم بالرعاية . ولكن هيات هيات .
فأنا وهم بعدك أيتام يا أماء !

« لقد شعرت اليوم فقط بثقل الحب . وعلت أننى لم أكن
أنهض به وحدى ، وأننى كنت أراهم وأراهم معهم . لأننى
قوى بك . أما اليوم فالحب قاذح ، والحمل ثقيل ، وأنا وحدى
ضعيف هزيل !

« إن الشوط لطويل . وإنى لوحدى فى الطريق ، وأخى
وحده كذلك ، وأختاى وحدها أيضاً ، وإن كنا نقطمه جميعا
والعش الذى خلّفته ستظل فراخه زغباً مهما امتد بها
الزمن ، لأن يدك الرفيقة لا تمسح ريشها وتباركه ، وكفك
الذاعمة لا تدرب أجنتها على التحليق ، وروحك الحنون
لا تكاؤها فى أجواز الفضاء !
نحن اليوم غرباء يا أماء

لقد كنا — وأنت معنا — نستشعر فى القاهرة معنى القرية
فى بعض اللحظات ، وكنا نشبه أنفسنا بالشجرة التى تقلت من
تربتها ، والتى ينبى لها أن تكثر من فروعها لتتق الاندثار
فى غربتها !

أما نحن اليوم فغرباء فى الحياة كلها . نحن الأفرع القليلة
ذوى غصنها ، بعد اغترابها من تربتها . وهيات أن تثبت أغصان
فى التربة القريبة ... بلا أم !

« أماء ... »

من ذا الذى يقص على أفاضل طفولتى كأنها حادث الأمس
القريب ، ويصور لى أيامى الأولى فيعيد إليها الحياة ، ويهمنها كرة
أخرى فى الوجود ؟

أقد كنت تصورينى لنفسى كأنها نسيج فريد منذ ما كنت
فى المهد صبيًا ! وكنت تحدثنى عن آمالك التى شهد مولدها
مولدى ، فينسرب فى خاطرى أننى عظيم ، وأننى مطالب بتكاليف
هذه العظمة التى هى من نسيج خيالك ووحى جناحك ! فن ذا
يوسوس إلى بعد اليوم بهذه الخيالات الساحرة ؟ ومن ذا يوحى
إلى بعد اليوم بتلك الحوافر القاهرة ؟

مجموعات الرسالة

بإع مجموعات (الرسالة) مجلدة بالأمان الآنية :
السنة الأولى فى مجلد واحد ١٠٠ قرش ،
و ١٠٠ قرش عن كل سنة من السنوات :
الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة
والثامنة والتاسعة والعاشر فى مجلدين . وذلك
عدا أجرة البريد وقدره خسة قروش فى الداخل
وعشرة قروش فى السودان وعشرون قرشاً
فى الخارج عن كل مجلد .